نتنياهو وسيكولوجية الجماهير

أشرف عثمان بدر*

أثار فوز الليكود بقيادة بنيامين نتنياهو بثلاثين مقعدًا في انتخابات الكنيست الأخيرة تساؤلات عدة، من أهمها: كيف استطاع نتنياهو "الاستيلاء" على أصوات ناخبي اليمين وتحويلها من الأحزاب اليمينية باتجاه الليكود؟ وما الذي فعله لتحويل سلوك الناخبين من سلوك عقلانيّ إلى سلوك عاطفيّ؟ الإجابة عن هذه الأسئلة قد تكون متوافرة لدى غوستاف لوبون ونظريته التي خطّها حول نفسيّة الجماهير في كتابه سيكولوجيّة الجماهير[1].

يرى لوبون أنّ هنالك روحًا للجماهير مكونّة من الانفعالات البدائيّة، ومكرَّسة بواسطة العقائد الإيمانية القوية، كما أنها خاضعة لتحريضات وإيعازات أحد المحركين أو القادة الذي يعرف كيف يفرض إرادته عليها، فالقائد يستخدم الصور الموحية والشعارات بدلاً من الأفكار المنطقية والواقعية ليستملك روح الجماهير ويسيطر عليها.

يمكننا المجازفة بالقول إنّ نتنياهو في حملته الانتخابية قد استخدم نظرية لوبون من أجل التأثير على سلوك الناخبين وتحويله من سلوك عقلاني إلى سلوك عاطفي، مع أنّه من الصعب تحديد العوامل المؤثرة على سلوك الناخبين، لتداخل هذه العوامل وتعقيداتها؛ فعمر الناخب وجنسه وانتماؤه الإثنيّ ودرجة تديّنه ومستواه الاقتصادي والاجتماعي، كلّ هذه –مجتمعةً- تساهم في سلوكه الانتخابي. ورغم ذلك، وضعت بعض النماذج لتفسير سلوك الناخب، من أهمها نموذج الاختيار العقلاني الذي يفترض أنّ الناخب يتخذ قراراته بناءً على توازنات وحسابات دقيقة، وبعد مقارنة البدائل المتاحة من أجل الوصول إلى الخيار الذي يحقق مصلحته. وهنالك نموذج آخر مبني على المشاعر والعواطف يمكن أن نطلق عليه نموذج الاختيار العاطفي الذي يعطي أهمية للهُويّة بشكلها المتعصب وللنزعات الغرائزيّة للجماهير، وأخيرًا هنالك نموذج الانتماء الاجتماعي حيث يختار الناخبون بناء على الطبقة الاجتماعية التي ينتمون لها. هذه النماذج تصلح لقياس توجّهات الناخبين أصحاب التوجهات المحسومة سلفًا، لكن في ظل وجود نسبة عالية من الناخبين أصحاب الأصوات "العائمة" الذين يقررون في الساعات وربما في الدقائق الأخيرة، فإنّ الصعوبة في الإجابة عن سؤالنا تبقى قائمة، حيث

[1] أنظر كتاب غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، (ترجمة: هاشم صالح)، (بيروت: دار الساقي، 1991، ط 1).

تبلغ نسبة أصوات المترددين من مجموع الناخبين الإسرائيليين نحو 25%، أي إنّ نحو 30 مقعدًا من المقاعد الـ 120 للكنيست تبقى غير محسومة، وبالتالي من الصعب التنبؤ بنتيجتها في استطلاعات الرأي وتبقى معلقة بقرار من جمهور المترددين حتى اللحظة الأخيرة. وعلى ما يبدو، استطاع نتنياهو بخطابه العاطفي التحريضي جذب جزء لا يستهان به من المترددين نحو التصويت لليكود.

أظهرت استطلاعات الرأي التي أُجرِيت في خضم انتخابات العام 2015 أنّ الجانب الاقتصادي/ الاجتماعي يتربع على رأس سلّم اهتمامات الناخبين. وهذا يفسر تركيز الأحزاب الإسرائيلية المنافسة لنتنياهو في دعايتها الانتخابية على موضوع العدالة الاجتماعية.

يشير استطلاع فوكس إلى أنّ 39% يجدون أنّه من بين رؤساء الأحزاب نتنياهو هو الأقدر على حفظ الأمن (المركز الأول) يليه هرتصوغ بنسبة 22%. نتنياهو برع في تسويق نفسه كرجل الأمن، وذلك بتركيزه على الأخطار الأمنية المحيطة بإسرائيل؛ فتارة يروّج لنفسه كقادر على مواجهة الخطر النووي الإيراني، وتارة أخرى يعرض نفسه كشخص قادر على إنهاء تهديد حركات المقاومة الفلسطينية، وعلى رأسها حماس. ففي الخطاب الذي أعلن فيه نتنياهو حل الائتلاف الحاكم والدعوة للانتخابات المبكرة، أشار إلى أنّ الهدف الأساسيّ الذي كان يسعى لتحقيقه هو المحافظة على الأمن، بالإضافة إلى المحافظة على اقتصاد قوي. تركزت حملة نتنياهو الانتخابية حول هذا المحور متهمًا خصومه بعدم القدرة على حفظ أمن إسرائيل، حتى وصل الأمر بحملته الدعائية إلى نشر مقطع فيديو على موقع حزب الليكود يشير إلى أن انتخاب اليسار سوف يجلب داعش للقدس. حزب الليكود يعلم أنه لن يستطيع الترويج لنفسه كحريص على تحقيق العدالة الاجتماعية، وذلك أن برنامجه الاقتصادي قائم على الاقتصادي الليبرالي، ولذا يركز في دعايته الانتخابية على تحقيق الأمن، وهذا ما دفع وزير الدفاع الليكودي موشيه يعلون -في معرض حديثه عن إنجازات الحكومة- للتهرب من أسئلة الصحافيين حول الوضع الاقتصادي ودعوته الصحافة للنظر للإنجازات الأمنية.

يرى عكيفا إلدار (في بحث أجراه يستند فيه إلى استطلاعين للرأي، أجري أحدهما قبل إحدى عمليات المقاومة، والثاني بعدها) أنّ الناخب الإسرائيلي يتوجه إلى انتخاب أحزاب اليمين كلما شعر أنّ أمنه مهدد. في البحث نفسه، يخلص إلدار إلى النتيجة ذاتها عند مقارنته للتوجهات الانتخابيّة في المناطق التي تتعرض للقصف من صواريخ المقاومة، إذ وجد أنّ هذه المناطق بعد قصفها زادت فيها نسبة التصويت لليمين. وفي جانب متّصل بهذا الأمر، نجد إصرار نتنياهو على إلقاء خطابه في الكونغرس حول المشروع النووي الإيراني دون التنسيق مع الإدارة الأميركية، وذلك للظهور بمظهر المُدافع الشرس عن الأمن الإسرائيلي؛ فعلى ما يبدو إنّ الشعور العامّ لدى الناخب الإسرائيلي بأنّ اليمين أقدر على حفظ أمنه نابع من كون اليمين لا يلقي بالاً للضغوط الدولية، ولا يهتم كثيرًا بتحسين صورته أمام الرأي العام العالمي، على العكس من أحزاب اليسار، كما هو حاصل في حالة إلقاء نتنياهو لخطابه أمام الكونغرس، وكذلك بالطبع في حالة محاربة المقاومة في

غزة التي تعني بالضرورة سقوط شهداء من العزل والأبرياء البعيدين عن الانخراط في أي أعمال قتاليّة، مما يعني انتقادًا لإسرائيل على مستوى الرأي العام العالميّ.

خصوم نتنياهو في الانتخابات لجأوا إلى بعض الجنرالات الذين خدموا في الجيش والأجهزة الأمنية (وعلى رأسهم الرئيس السابق للموساد مائير داغان، والرئيس السابق للشاباك يوفال ديسكين)، ابتغاء تفنيد ادعائه أنّه الأقدر على حفظ الأمن، كما قاموا بنشر مقطع مصور لنحو 200 من قادة الأمن ينتقدون أداء نتنياهو الأمني، وأنّ أمن إسرائيل وصل إلى مستوى غير مسبوق من الانحدار أثناء تولّيه الحكم، وهو ما يبرز في عدم وجود رؤية أو خطة واضحة للحكومة، وعدم حسم المعركة مع حماس، واحتمالية فتح جبهة جديدة في الجولان بالإضافة إلى تدهور العلاقة مع الولايات المتحدة.

تأثُّر نتنياهو بهذه الحملة المضادة، بالإضافة إلى تأثّره من تقرير مراقب الدولة الذي يشير إلى وجود إهدار للأموال العامة وشبهة فساد في مصاريف مسكنه، ظهر جليًّا في استطلاعات الرأي التي نشرتها القنوات الإسرائيلية عشيّة الانتخابات (القناة الثانية والعاشرة والأولى)، والتي ذهبت بمجملها إلى نتيجة متقاربة وهي تفوق المعسكر الصهيوني (يسار /وسط) على الليكود اليميني، دون أنّ يؤثر ذلك على حجم الكتلة اليمينية المكوَّنة من أحزاب اليمين؛ فالأحزاب اليمينية -مجتمعةً- تمتلك أغلبية مقارنة باليسار والوسط.

استطاع نتنياهو تحويل نتائج هذه الاستطلاعات لصالحه، فاستغّل آخر ثلاثة أيام من الحملة الانتخابية بطريقة ناجحة كي يحوّل اهتمام الجمهور الانتخابي من الاهتمام بالشأن الاقتصادي /الاجتماعي إلى الشأن الأمني، بمعنى تحويل سلوك الناخبين من سلوك عقلاني إلى سلوك عاطفي مبني على التصعب الهُويّاتيّ، فقام بتصعيد لهجته التحريضية العنصرية مستغلاً عواطف الجماهير ومشاعرها، ومحرّكًا للنزعات العنصرية، وبلغ الأمر ذروته في التجمع الانتخابي الذي عقدته أحزاب اليمين في ساحة رابين قبل الانتخابات بيوم، حيث لجأ نتنياهو في خطابه إلى إثارة العواطف عبر استخدام نظرية المؤامرة بالإشارة إلى أنّ هنالك حملة عالمية تديرها بعض الدول الأوروبية وأموال هائلة تُنفَق على مجموعات ترفع شعار "فقط ليس نتنياهو"، من أجل الإطاحة بحكم اليمين وتنصيب اليسار لتسلّم الحكم ممثلاً بالمعسكر الصهيوني مدعومًا بالقائمة المشتركة "العربية"، مستشهدًا بوجود بعض الحركات المدعومة خارجيًّا التي تعمل لتحقيق هذا الهدف كحركة V15، وأوضح أنّ دافع هذه "المؤامرة" يعود إلى معرفة هذه الأطراف المعادية للمعسكر الوطني أن حكومة بقيادته لن تقبل بالتنازل أو الانسحاب أو تقسيم القدس، قائلاً: "لن يقرر المال، بل الشعب وإيمانه سيقرر [...] هم عندهم V15 ونحن عندنا الشعب"، منوِّهًا إلى أنّه لا فرق جوهري بين الأحزاب اليمينيّة، وأنّ الحكمة تستدعي تحويل الأصوات من الأحزاب اليمينيّة -كحزب "البيت اليهوديّ"- إلى الليكود، وذلك في سبيل تقليص الفارق بينه وبين المعسكر الصهيونيّ حتى يستطيع نتنياهو تشكيل الحكومة التي بطبيعة الحال ستضم الأحزاب اليمينية.

على ما يبدو، استعان نتنياهو بنظرية غوستاف لوبون في حملته الانتخابية؛ ففي خطابه قام بالضرب على وتر حساس لدى الجمهور الإسرائيلي، هو جانب الانتماء والشعور الوطني، وذلك عبر رفض التدخل الأجنبي في تقرير مصير إسرائيل، مستغلاً الصورة الذهنيّة المتكونة لدى الجمهور لحكم اليسار، فالصورة الذهنيّة المستقرّة في ذاكرة جزء لا يستهان به من الجمهور الإسرائيلي لحكم اليسار مرتبطة بالخضوع للإملاءات الخارجية وتوقيع اتفاق أوسلو الذي تسبّب بحدوث عمليات تفجيرية في وسط المدن، مما هدّد نمط الحياة الإسرائيلية. علاوة على هذا، أثار النعرةَ العنصرية لدى جمهور الناخبين بإشارته إلى أنّ العرب هم من سيحددون مصير دولة إسرائيل عبر تحالفهم مع المعسكر الصهيوني، وكذلك أثار نتنياهو موضوع الهُويّة والانتماء الديني بقوله: "نحن سنبقى نقبِّل التمائم الدينية" ردًّا على غربوز (أحد منظِّري اليسار) الذي دعا إلى عدم تولِيَة قيادة إسرائيل لمن يقبِّلون التمائم الدينية.

وهكذا استطاع نتنياهو توجيه الجمهور عبر إثارة مخاوفه والإيحاء له بأن "البيت يحترق" محرّضًا على الأقلية العربية، فصرّح يوم الانتخابات أنّ العرب يتدفقون إلى صناديق الاقتراع كالطوفان، فضرب عصفورين بحجر واحد من أجل رفع رصيد الليكود من 22 مقعدًا إلى 30؛ فمن ناحية، رفع نسبة التصويت من 67.8% كما حدث في انتخابات العام 2013 إلى 72.36% في العام 2015 (وهي النسبة الأعلى منذ العام 1999)، وبالتالي استجلب أصواتًا جديدة لحزب الليكود لم تكن ضمن الفئات المستطلَعة آراؤها تقدَّر على الأقل بمقعدين، ومن ناحية أخرى استطاع أن يُحْدِث انحيازًا في أصوات ناخبي اليمين فاستحوذ على نحو أربعة مقاعد من البيت اليهودي وقرابة مقعدين من شاس ويهدوت هتوراه.

نجح نتنياهو في السيطرة على نفسيّة الجماهير، وذلك بتحويل اهتمامها من المضمار الاقتصاديّ إلى المضمار الأمنيّ والصراع على الهُويّة، بعد أن كان محور اهتمام الناخب الإسرائيلي والحملة الدعائية -لدى معظم الأحزاب الإسرائيلية- تدور حول الموضوع الاقتصادي /الاجتماعي، فأحدث مفاجأة لدى معظم المراقبين بتصدُّرِهِ نتائج الانتخابات بفارق مريح، بعد أن كانت كل استطلاعات الرأي تعطي نتيجة معاكسة. هذه النتيجة دفعت أنصار نتنياهو للهتاف له عقب ظهور النتائج النهائية "هو ساحر... هو ساحر". فإلى متى سيستمر تأثير "سحْر" نتنياهو؟ وهل سيجدي "سحْره" نفعًا في معالجة القضايا الشائكة التي تنتظره، كي تصمد حكومته القادمة وتكمل مدة أربع سنوات؟

* **أشرف عثمان بدر هو باحث في الدراسات الاسرائيليّة.**